# الإسلام والغرب وصعوبات الحوار

د. كمال عبد اللطيف

يحمل الزوج المفهومي «إسلام / غرب» دلالات متعدّدة ومركّبة، تعكس تاريخ تكوّن صيرورة معقدّة، تتداخل فيها عوامل تاريخية ودينية وسياسية وأيديولوجية لا حصر لها، لدرجة استحالت فيها إمكانية مقاربة الموضوع من دون إثارة حساسيات متعدّدة لمصلحة هذا الطرف أو ذاك.

فكيف يمكن النظر إلى العلاقة بين الإثنين خارج التّراكم الحاصل في بنية العلاقة القائمة بينهما؟

وكيف يمكن إعادة المفهومين بما يسمح بتجاوز المخلّفات المترسّبة في قعر كل مفهوم؟

يقف المهتم بموضوع العلاقة بين الإسلام والغرب على أساليب متعدّدة في التوظيف الأيديولوجي للمفاهيم التي تُطرح في حلبة الصراع لدعم اختيارات ونبذ أخرى، وذلك خارج معطيات التاريخ الفعلي، ومقتضيات العلاقات الموضوعية والتاريخية.

يجدر القول إنّ صيغة التقابل والتجافي في موضوع الإسلام والغرب ليست جديدة، كما أنّ مقالة صاموئيل هانتنغتون حول صراع الحضارات، ليست سوى نموذج للمحاولات المتأخرة، في باب تعميق الخلاف بين الإسلامَ والاختيارات السياسية الأميركية والغربية.

يعود هذا التجافي إلى زمن بعيد، زمن ظهور الإسلام. فقد شكّل الدين الإسلامي، منذ ظهوره، مشكلة لأوروبا النصرانية، وعرفت العلاقة بين عالم الإسلام (دار الإسلام) والعالم الأوروبي (أوروبا المسيحية)، أطواراً من الحروب ومعاهدات الصلح، وأشكالاً من التعاون والتلاقح، وأطواراً من المعارك اتخذت صوراً لا حصر لها.

لم تكن المعارك المتواصلة بين الطرفين تكتفي بالمظهر العسكري المادي، بل كانت تتّخذ أيضاً مظاهر ثقافية نفسية، وتوظف كثيراً من الآليات الذهنية لإصابة أكثر من هدف، أبرزها الهيمنة المادية والفكرية بمختلف صورهما، وعلى سبيل المثال يمكن القول إن الشيخ محمد عبده لم يكتب في مطلع القرن كتابه الشهير «الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنيّة»، إلا ليردّ على انتقادات وهجومات أوروبا الاستعمارية، وكانت إذ ذاك، في زمنه قد بلغت عتبة الإمبرياليّة.

ويقدّم سجّل الفكر العربي المعاصر عشرات النصوص السّجالية المعبّرة عن أبعاد الخلاف والاختلاف القائمة في التّصور الإسلامي للغرب، ولإدراك الغرب للإسلام وعالم المسلمين.

إنطلاقاً من التّمهيد السّابق، تُعدُّ صيغة الزوج المفهومي «إسلام / غرب»، ـ في نظرنا ـ صيغة ملتبسة وملغومة، فالتقابل فيها يتمّ بين مفهومين غير متكافئين نظرياً، ويصعب التفكير فيها بطريقة متكافئة. فالصيغة إذاً ـ لهذا السبب ـ غير محايدة. ليس فقط لأنها تقابل بين مفهوم يحيل إلى عقيدة، إلى الإسلام باعتباره ديانة من ديانات الكتاب، أو ديانة تعلن أنها تصحّح وتتدارك نواقص الديانات الأخرى، وبين مفهوم آخر يشير إلى فضاء جغرافي مشحون بدلالة حضارية تستند إلى التراث الإغريقي الروماني المسيحي، ثم تراث النهضة الأوروبية، ومختلف مكتسبات الحضارة التي تولّدت في قلب الجغرافية الأوروبية، منذ ما يزيد على أربعة قرون.

فكيف يمكن التفكير في زوج مفهومي، يضعنا أمام دائرتين نظريتين مختلفتين تماماً؟

يُقرَن مفهوم الغرب، في أدبيات الصراع الأيديولوجي المعاصر بالحداثة، وبقيَم المعاصرة، كما يُقرن بالتطور الإقتصادي، المنتج لنمط الإنتاج الرأسمالي، ورديفه الأيديولوجيا الليبرالية، ويتوّج بالمشروع الإمبريالي، ومشاريع الهيمنة المتعددة. كذلك يقرن هذا المفهوم بالنزعة الإنسانية، ومبادئ فلسفة الأنوار، في العقلانية والحرية والتعاقد، ممّا يركب مزيجاً غريباً متناقضاً، يسمح لمختلف التيارات الأيديولوجية المتصارعة باستدعاء الوجه الذي تشاء منه، فلا تكاد تزداد تناقضاً، حتى يتولدَّ عن هذا المزيج المعقّد خطابات لا حصر لها، مما يعطّل آليات الاستدلال النظري المنتج، وقد تكون هذه ملازمة لكلّ المفاهيم التي توظّف في الحروب الأيديولوجية.

ولعلّ ما يؤكد هذا، هي مواقف الغرب الأوروبي من الإسلام. إنه يقوم بفتح الأقسام العلميّة لمعرفته داخل جامعاته، ويشجّع البحث العلمي، في مجال مقاربة الظاهرة الإسلامية، في مختلف أوجهها، لدرجة تجعله ينتج سنوياً نصوصاً مهمة في مجال المعرفة بالإسلام وتراثه، بعضها نزيه وموضوعي، وأغلبها

مفكر وأستاذ الفلسفة في جامعة محمد الخامس – المغرب

موجّه ومعدّ لترتيب أساليب في العمل، وغايات مهيّأة سلفاً. في الوقت ذاته، يدعم الغرب بعض الحركات الإسلاميّة لبلوغ مرام سياسية محددة، كما حصل في أطروحة هانتنغتون التي ترى أن زمن انتهاء الحرب الباردة بين الغرب الرأسمالي الليبرالي والغرب الاشتراكي، أدّى إلى ولادة عدو جديد، عدوٍّ يعمل كلّ ما في استطاعته لمواجهة الحضارة الغربية، وهي الحضارة التي تمتلك اليوم زمام المبادرة التاريخية المبدعة. فالإسلام ـ وفق هذه الأطروحة ـ هو العدو القديم، وهو العدو المرتقي، لأنه يرفض مقدمات الحضارة الغربية وأصولها، كما يرفض مكتسباتها.

فكيف نوفّق بين هذه المواقف، مثل العمل على معرفة الإسلام، تدعيم بعض النزعات الإسلامية، محاصرة الإسلام السياسي باسم رفضه لقِيَم الحداثة الفكرية والسياسية والتاريخية، كما تبلورت في تجربة التاريخ الأوروبي، وتشجيع بعض النزعات الإسلامية، بحجّة أنها متسامحة وقادرة على تقبّل مكاسب الحضارة الغربية؟

ويُنتج الغرب قراءة جديدة للتاريخ، تضع المشروع الحضاري الغربي كأفق متقدّم.

في ضوء هذه القراءة التي تُخرج الإسلام من التاريخ، أو تؤطّره في سياق من التطور يُدرجه ضمن طفولة البشرية، حيث لا تختلف فيها ميتافيزيقا الإسلام عن ميتافيزيقا كلّ الديانات التي عرفتها البشرية، في ضوء هذه القراءة، نتبيّن ملامح المركزية الغربية وهي تعيد بناء التاريخ البشري لخدمة مصالحها الخاصة في الحاضر والمستقبل.

وفي هذا السياق تقارب الأبحاث الاجتماعية والأنثربولوجيّة المنتجة في الجامعات ومراكز البحث الغربية ظاهرة استمرار حضور الظاهرة الدينية بالصورة التي هي عليه في بعض المجتمعات الإسلامية، وأحياناً داخل أوروبا، وذلك في إطار نزعات تأكيد الهوية، في مواجهة عمليات مسخها الحاصلة بحكم الهيمنة المفروضة من طرف الغرب الأمبريالي الذي يواصل طغيانه بوسائل وأساليب جديدة، حفاظاً على مصالحه، وضماناً لسيادته المطلقة على شعوب المعمورة.

إنطلاقاً من كلّ ذلك، يجتهد الغرب في تقديم أكثر من توصيف لتبرير العودة المندفعة نحو الموروث الديني الإسلامي، والنظر إليه كبديل يتيح إمكانية مقاومة الهيمنة الغربية، وبالأخص إمكانية مقاومة «الشيطان الأكبر» والولايات المتحدة الأميركية والغرب الأوروبي.

## عبادة الطّاغوت وحبّ الدّنيا

**تعزيز «حوار الأديان» ضرورة إنسانية تحظى بنفس أولوية قيمة المعرفة والفكر، وحرّية المعتقد.**
**إضافة إلى تجنّب التّسييس الإستهلاكي، تمسّ الحاجة إلى التوافق على مادة الحوار العقائديّة والأخلاقيّة.**
**وفي المصادر الإسلاميّة والمسيحيّة مشتركات قِيَمية بالغة الفرادة والأهمية، يمكن أن تشكل ساحة غنيّة ـ بِكراً ـ لحوار الأديان.**
**ما يلي نموذج منها.**

عن أبي عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام: «مرّ عيسى بن مريم عليه السلام على قرية قد مات أهلها، وطيرها ودوابّها فقال:
أما إنّهم لم يموتوا إلا بسخطة، ولو ماتوا متفرّقين لتدافنوا.
فقال الحواريون: يا روحَ الله وكلمته، أُدعُ الله أن يحييهم لنا فيخبرونا ما كانت أعمالهم فنجتنبها.

فدعا عيسى عليه السلام ربَّه فنودي من الجوّ أنْ نادِهم.

فقام عيسى عليه السلام باللّيل على شَرَفٍ (مرتفَع) من الأرض فقال:
يا أهل هذه القرية.
فأجابه منهم مجيب: لبّيك يا روح الله وكلمتَه.
فقال: وَيْحَكمْ، ما كانت أعمالكم؟
قال: عبادة الطّاغوت وحبّ الدنيا، مع خوفٍ قليل، وأملٍ بعيد، في غفلة ولهوٍ ولعب.
فقال: كيف كان حبّكم للدنيا؟
قال: كحبّ الصبي لأمّه، إذا أقبلتْ علينا فرحنا وسُرِرْنا، وإذا أدبرتْ عنّا بكينا وحَزِنّا.
قال: كيف كانت عبادتكم للطاغوت؟
قال: الطاعةُ لأهل المعاصي.
قال: كيف كانت عاقبة أمركم؟
قال: بتنا ليلة في عافية، وأصبحنا في الهاوية.
فقال: وما الهاوية؟
قال: سجّين.
قال: وما سجّين؟
قال: جبالٌ من جمر تُوقد علينا إلى يوم القيامة.
قال: فما قلتم وما قيل لكم؟
قال: قلنا رُدَّنا إلى الدنيا فنزهدَ فيها. قيل لنا: كذبتم.
قال: ويحك، كيف لم يكلّمني غيرُك من بينهم؟
قال: يا روح الله وكلمتَه. إنهم مُلجمون بلجام من نار، بأيدي ملائكةٍ غلاظٍ شداد. وإنّي كنت فيهم ولم أكن منهم، فلمّا نزل العذاب عمّني معهم، فأنا معلّق بشعرةٍ على شفير جهنم، لا أدري، أُكَبْكَبُ فيها أم أنجو منها.

فالتفت عيسى عليه السلام إلى الحواريّين فقال: يا أولياء الله، أكلُ الخبز اليابس بالملح الجريش، والنّومُ على المزابل، خيرٌ كثيرٌ مع عافية الدّنيا والآخرة.

العلامة المجلسيّ، بحار الأنوار، ج 70، ص 10، نقلاً عن كتاب «الكافي» للكلينيّ رحمه الله.